قصة قصيرة

في اللحظة التي تلي..!

عبدالله باخشوين

الأب، والأم، وابنة العم الغبيّة: وداع أليم، لم تسكب فيه دمعة ولا لوح منديل.

هطل المطر، وظلت السماء طوال الوقت، تملؤها سحب رمادية كثيفة. تبللت ملابسي الجديدة التي قال والدي إنه دفع فيها: «دم قلبه».

هطل المطر مدراراً، والدموع بعدها لم تزل حجارة تجحظ العيون. قالت أمي بأسى:

«يا وليدي لا أوصيك. الرجّال يكون رجّال»؟!

كان أبي يقف بجوارها نحيلاً كئيباً، يغالب أحزانه دون جدوى. أما أختي التي لم تكن قد تجاوزت الخامسة، فقد وقفت بعيداً، ترقب وهي تلوك كسرة خبز، أبداً ما وقفت ترقب إلا وفي يدها كسرة خبز.

ابنة عمي قرصت ذراعي منبهة وهمست: «لا تنس»..؟!

أردفت أمي بقلق:

«يا وليدي لا أوصيك.. أخوانك» وذهبت.

«أخوانك ما لهم إلا الله وأنت»..؟!

ذهبت أنفض غبار الدروب خلفي على ماضٍ يطل بين لحظة وأخرى كاللعنة. يعذبني. يحاصرني. يطوق عنقي حتى لا أكاد أعرف أماضٍ هو أم حاضر أعيش منفياً فيه. لا شيء يعكر صفوي سوى إحساسي بأنني لا أعيش حياتي بل اجترها من ذكريات بعيدة.. بعيدة..

إنها أعوام وأعوام. كلها مضت، ولم تخلف لي سوى هذا الوجه القبيح: أنف أفطس. عينان واسعتان. وأسنان بارزة.

إن كل هذا يعذبني ويجعلني ألعن نفسي ألف ألف لعنة و...

قذف بالمرآة بعيداً.

أدهشه أنها لم تتحطم.

فلتأخذ العفاريت كل من له أب، وأم، وأخت لم تتجاوز الخامسة، وابنة عم تقرصه في ذراعه لحظة الوداع كي: «لاينسى».

فلتأخذ العفاريت كل من حمل وجهاً قبيحاً - مثل وجهي - وسكن غرفة رطبة بأحد الأزقة المظلمة: «يا يمة الدنيا عليّ زاد حالها».

«يا وليدي لا تهتم كلها بكره تصير حكاية».

والتفكير يجلب الكدر. النظر إلى المرآةيجلب الكدر.. والماضي والحاضر.. شد الثوب من ذيله حتى طقطقت خيوطه وبدت كرمشاته قليلة، رفع رزمة الكتب عن غترته فبدت كأنها مكوية:

نظر إلى قدميه.

«يا وليدي حرام عليك اغسل رجلينك»:

«يا يمة الدنيا عليّ زاد حالها.. الله يلعن أبو رجليني».

انتعل حذاءه. تناول كسرة خبز من على الطاولة وأخذ يلوكها دون شهية. حمل إبريق الشاي وعب من فمه جرعة باردة مرة. نظر إلى ثوبه متفحصاً:

«عريس يا وليدي.. يا رب أشوفك عريس».

تخطى عتبه الباب خارجاً. شد خلفه وربط درفتيه بحبل سميك. لا أحد في مثل هذا الزقاق يقفل باب بيته. الدنيا «أمان».. توقف عندما رآها. كانت تنتظر متلصصة من فتحة الباب، وكان يعرف أنها تنتظره، غمز لها بعينه.. مع ذلك:

«وجع في عينك».

صفقت الباب في وجهه بقوة:

«يا الله صباح خير.. يا فتّاح يا عليم».

عادت لحظة الوداع تطل برأسها من شق باب الذاكرة. ابنة العم تحلم بليلة العرس. والأم اكتفت بآهه اليمة ونظرة حزن وتوسل أخفت خلفها بحيرات من الدموع.

لو بكت..؟!

لو تركت دمعة واحدة تلسع خديها، لربما تغير كل شيء.. كل شيء.

توقف أمام كشك صغير بجوار مبنى الدائرة التي يعمل فيها. طلب سندويتشاً وشاياً وطلب تسجيل ذلك على الحساب..

صاحب الكشك سجل الطلب في دفتره على مضض بعد أن نبهه إلى أن الحساب قد زاد عن حده. انتابه غمّ لا حدود له. فقد الرغبة في الذهاب إلى عمله. ملأ نفسه غضب رهيب، أعماه فلم يعد يرى شيئاً. خلال عودته كان يهذر بكلام لا يعرف ما هو. كان يلوّح بيديه ويشتم والمارة يحدقون فيه باستغراب ودهشة:

«الله يهديك يا وليدي.. الله يهديك».

«قولي الله يأخذ روحك ويريحني منك ومن بلاويك».

أمام باب غرفته توقّف. حل وثاق الباب وقذف بالحبل بعيداً.. خلع غترته بعناية وأعادها تحت رزمة الكتب، ودون أن يخلع ثوبه قذف بنفسه على السرير الخشبي فكاد أن يسقط به:

«خاف الله في نفسك يا بني».

تمطّى بلا مبالاة وحاول أن ينام.

* * *

مضت ساعة.

ربما ساعتان. ربما..

نهض من فراشه مذعوراً، لا يدري أين هو. عندما تبين معالم غرفته، أيقن أنه لم يكن يحلم. كان ثلاثة من رجال الشرطة يتوسطون الغرفة، بعد أن دفعوا بابها بعنف. وقف قبالتهم ذاهلاً. فرك عينيه وحدق فيهم عاجزاً عن الكلام.. دفعه أحدهم فتراجع وسقط على السرير. خرجت الكلمات دون وعي منه:

- أيها السادة ما بكم.. كنت أحلم..!!

تمالك نفسه وتساءل متلعثماً:

- ماذا.. ماذا تريدون..!!

قال قائلهم:

- هيا معنا.. أنت مطلوب!

أجاب وهو يرتعد:

- لماذا.. إنني لم..

اقتادوه وضاعت بقية كلماته:

«ليش أبوي ما قام يايمه»؟!

«يا ولدي خاف الله.. أبوك مريض الله يعلم بحالته».

* * *

على المقعد الذي أشار له الجندي، استرخى وأغمض عينيه في شبه إغماء. وخلال جلسته تلك تراكض صبية القرية يتقدمونه مهللين وهو متجه نحو بيتهم. خف إليه أبوه أشعث الشعر حافي القدمين. تعانقا. افترقا. نظر كل منهما إلى الآخر متفحصاً ثم تعانقا من جديد.. وقفت أمه في باحة الدار حسيرة الرأس وأخذت تزغرد منغمة صوتها قبل أن تشهق بالبكاء. دخل الضابط المحقق. استقر على مقعده دون أن يعير تحية الجندي التفاتاً. أخذ يحدق فيه وهو جالس قبالته مغمض العينين، تنحنح منبهاً. نقر الطاولة بعصبية. وتساءل:

- ما اسمك؟!

تسمرت عيناه على وجه المحقق للحظة قبل أن يدرك حقيقة الوضع الذي هو فيه. ابتسم المحقق مشجعاً وسأله:

- منذ متى وأنت في هذا المدينة.؟

قال مفكراً:

- ثلاث.. أربع سنين على الأكثر؟!

- هل للقتيل أصدقاء غيرك؟

- ربما.. لكنه لم يحدثني أن له أصدقاء. إنه غريب مثلي.

- حسناً.. متى زرته لآخر مرة؟

- البارحة.

- قتل في نفس الليلة؟

- أرجوك يا سيدي، لا تربط حادث قتله بزيارتي له.

- لكن ملابسك كانت تلطخها الدماء؟!

فغر فاه غير مصدق. ألح عليه المحقق:

- أجب: بماذا تعلل وجود بقع الدم على ثوبك..؟!

أصابته حيرة لا حدود لها. قال مترددا:

- لا.. لا أدري. غير أن ثيابي لم يكن عليها بقعة دم واحدة قبل أن يقتحم رجالك غرفتي!

- ماذا تعني؟

- لا أدري يا سيدي.. لا أدري. غير أني أعني ما قلت.

- هل قام أحدهم بدلق الدم على ثوبك؟

- معاذ الله يا سيدي.. لكني متأكد أن ثوبي لم يكن عليه دم قبل...

صمت حائراً لا يدري ما يقول بعد. كان قد سهر على ثوبه يغسله كعادته ليلة كل سبت حتى يتمكن من الذهاب إلى عمله بمظهر لائق. حتى لقد كان يرتدي ثوباً آخر عندما زار صديقه. قال المحقق:

- هل ذهبت إلى عملك هذا الصباح..؟

هز رأسه إيجاباً أول الأمر. ثم همهم مترددا يبحث عن كلمات مناسبة. أردف المحقق:

- وصلت حتى باب المبنى ثم عدت أدراجك، أليس كذلك؟

أومأ إيجاباً وهو يشعر بالارتياح. ألحّ المحقق:

- ما سبب عدم دخولك مبنى الدائرة؟

- لا أدري. كنت متضايقاً فعدت.

- هل عدت لمسكنك مباشرة؟

- تسكعت قليلاً.

- أين ذهبت تحديداً؟

- لا أذكر. همت على وجهي في الشوارع على غير هدى.

- لماذا حمت حول مسكن القتيل؟

- أنا..؟ متى..؟

- قبل أن تعود لمسكنك.

صعق. إنها اللعنة قد حلت. أو أن في الأمر لبساً ما:

«يايمه الدنيا عليّ زاد حالها.. وين أبوي»؟!

«يا وليدي خاف الله في نفسك.. خاف الله»..؟!

صرخ في المحقق بخوف:

- لم أحم حول منزله. أقسم لك أن لا علاقة لي بحادث قتله... اقسم لك..؟!

- حدثني عن علاقتك به إذن؟

- صديق عزيز وحيد. إننا غريبان هنا كما ترى.

- أريد تفاصيل أكثر؟

- مثل ماذا؟

- كل شيء.. كل شيء؟!

- إنه إنسان طيّب، أجد في الجلوس معه ما يؤنس وحدتي ويهوّن عليّ غربتي.

- فقط..؟

- لا شيء أكثر من ذلك. أقسم لك.

- هل سبق أن تشاجرتما..؟

- إطلاقاً.

- جيران القتيل شهدوا أنكما تشاجرتما ذات ليلة.

- هذا كذب.

- أحد الذين فضّوا الشجار بينكما قال إنك كنت مخموراً..!

- أنا لا أشرب الخمر يا سيدي!

- بصمات يدك أيضاً كانت على مقبض السكين.

- أي سكين..؟!

- السكين التي طعنت الجثّة...

- جثة من.. إنني لا أعرف شيئاً مما تقول.

- لا تعرف.. أم لا تذكر..؟!

- لا أعرف.. لا أعرف.

- ما الذي يثبت صحة أقوالك؟

أصابته حيرة لا حدود لها. وضع رأسه بين يديه وأخذ يتمتم كمن يهذي:

- لا أدري.. لا أدري.. لا أدري؟!

قال المحقق مراوغاً:

- حاول أن تتذكر. إن النكران لا يجدي نفعاً.. الأدلة كلها ضدك!

- أية أدلة هذه التي تتحدث عنها؟

- ثيابك. الشهود.. بصمات يدك!!

- كذب.. كذب.. كل هذا كذب.

كان الحصار حوله محكماً.. وحيرته وعذابه لا حد لهما على الاطلاق. أخذ يفكر محاولاً استعادة أحداث الليلة الماضية. فلم يجد في الأمر ما يريب. إنه يذكر كل التفاصيل منذ أن التقى صديقه عقب صلاة العشاء حتى لحظة خروجه قبل منتصف الليل بقليل.

عاد إلى مسكنه دون تباطؤ، وتهيأ للنوم حتى يتمكن من النهوض باكراً ويذهب إلى عمله. نام نوماً متقطعاً غير هنيء. غير أنه لم يترك غرفته منذ أن عاد إليها. بل ربما لم ينهض من على سريره منذ أن استلقى عليه. لكن..

نظر إلى المحقق ذاهلاً وتمتم:

- لقد حدثت أمور غريبة هذا الصباح. ربما.. لا أدري ماذا أقول، ربما كان في أحلامي شيء من العنف. غير أني لا أذكر هذه الأحلام جيداً. إنني لست مستقراً في حياتي. إن النوم لا يأتيني في أحيان كثيرة إلا ككابوس مريع. حتى لقد حلمت بالقتل مرة أو اثنتين لا أذكر. لكن لم تكن هناك معالم محددة. لم تكن هناك صورة واضحة. كل شيء غائم تقريباً.

- متى حلمت.. أو فكرت في القتل لأول مرة؟

- لا أذكر.

- ألم تفكر أو تحلم بالقتل في الفترة الأخيرة؟

- بلى يا سيدي.

- متى.

- في اللحظة التي اقتحم فيها رجال الشرطة غرفتي.

الطائف

دار الآداب تقدم

مؤلفات الدكتورة
نوال السعداوي

- امرأتان في امرأة
- موت الرجل الوحيد على الأرض
- امرأة عند نقطة الصفر
- الأغنية الدائرية
- موت معالي الوزير سابقاً
- الخيط وعين الحياة
- الغائب
- كانت هي الأضعف
- مذكرات طبيبة
- تعلمت الحب
- حنان فليل
- لحظة صدق